شخصية استوقفتني

(( الأمين ))

د. عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

موقع جامع هيا العساف :

<http://www.hayaalassaf.com>

القناة الرسمية على اليوتيوب :

<https://www.youtube.com/channel/UCq3VB0Xi1Zorm3_Hje4JaCw>

الأولى

تعالوا معي اليوم بعيداً عن الأحداث التي يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، بعيداً عن غثاء الإعلام وقيل وقال .

تعال معي اليوم لنلقي السمع والبصر والفؤاد إلى رحلة نكشف بها حجب التاريخ .

لنعيش مع رجل عظيم، زاهد أمين ، وعادل راشد، عظيم بإيمانه، عظيم بصدقه وأمانته .

نعيش اليوم مع صحابي كبير من السابقين الأولين وأحد العشرة المبشرين .

نعيش اليوم مع التقي النقي ، العابد الخاشع .

نعيش اليوم مع صاحب الأيام الناصعة ، والأيادي البيضاء السّاطعة ، من أحسن الناس خلقاً ، وألينهم عريكةً وَمَعْشَراً .

زهد في الدنيا بعد ما أقبلت عليه ، وأعرض عنها بعد ما جاءت تسعى إليه .

يقول عنه معاذ بن جبل > : « مَا أَزْعُمُ أَنِّي رَأَيْتُ مِنْ عَبادِ اللَّهِ عَبْدًا قَطُّ أَقَلَّ غَمْزًا وَلَا أَبَرَّ صَدْرًا، وَلَا أَبْعَدَ غَائِلَةً، وَلَا أَشَدَّ حُبًّا لِلْعَاقِبَةِ، وَلَا أَنْصَحَ لِلْعَامَّةِ مِنْهُ، فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ أَصْحِرُوا لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ لَا يَلِي عَلَيْكُمْ مِثْلَهُ أَبَدًا» رواه الحاكم في المستدرك (5148)

إنه رجلُ الأمانة والصلاح ، ورمز التّقى والفلاح .

الصحابي الجليل أبو عبيدة عامر بن الجراح > .

ماذا يعرف هذا الجمع الطيب عن أبي عبيدة ؟

ماذا قرأ جيل اليوم عن أمين هذه الأمة ؟

يقول رسول الله @ : «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ» متفق عليه .

عبدالله تأمل هذا الوصف النبوي «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ» متفق عليه .

ويقول @ : «لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ حَقَّ أَمِينٍ» فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ. متفق عليه .

أبا عُبيدَةَ.. والآدابُ ماثلةٌ

تُهْدِي أفانينَها المُثلَى لمن نَظَرَا

مَنَاقِبٌ تُلهِبُ الإحساسَ رائعةٌ

أمامَ عينَيَّ تَسْبي اللُّبَّ والفِكَرا

ماذا سنَرْوي من المجدِ العظيمِ لِمَنْ

بكلِّ وصفٍ جميلٍ كانَ مُشْتَهِرا

أسلم أبو عبيدة في الأيام الأولى من الدعوة ، فكان من السابقين إلى الإسلام ، وممّن تحملوا الأذى والغربة في سبيل الله .

أبو عبيدة الذي قال أثنى عليه عمر > وهو يجود بأنفاسه الأخيرة ويقول: والله لو كان أبو عبيدة بن الجرّاح حيًا لاستخلفته من بعدي، فإن سألني ربي عنه قلت: استخلفت أمين الله، وأمين رسوله".

وإذا ذكرتُ أبا عبيدة \*\*\* ساخت الألقاب والأسماء

رجل نفاخر نفسه في نفسه \*\*\* وبنفسه تتفاخر الأعضاء

أبو عبيدة الذي قال عنه عمر > يوماً لأصحابه : «تَمَنَّوْا» ، فَجَعَلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَتَمَنَّى شَيْئًا، فَقَالَ عمر> : «لَكِنِّي أَتَمَنَّى بَيْتًا مَمْلُوءًا رِجَالًا مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ» .

أبو عبيدة الذي لقب بأمير الأمراء ، وقائد الأوفياء ، وسيد الأتقياء .

أبو عبيدة التي عاش في مكة تحت وطأة التعذيب ، وتفننت قريش في الاعتداء عليه ، وصبّت قريش جام غضبها عليه وعلى أصحاب رسول الله @ فنال أبو عبيدة نصيباً كبيراً من العذاب والأذى حتّى هاجر > فراراً بدينه للحـبشة ، ثم هاجر إلى المدينة فاراً بدينه وعقيدته ، ولازم رسول الله @ في السرّاء والضراء ، والمحنة والمنحة ، فشهد المشاهد كلّها بدءاً بغزوة بدر الكبرى ، وكان له فيها موقفٌ عجيب وحدثٌ جلل ، ودارت رحى الحرب([[1]](#footnote-1)) ، والتحم الفريقان ، وها هو أبو عبيدة > يرى والده ، في صفوف المشركين وإذا بوالد أبي عبيدة يُصوّبُ رماحَهُ ويُسدّدُ رميه على أصحاب رسول الله @ وينحرف أبو عبيدة عن أبيه خشية أن يقتله عسى الله أن ينزل على أبيه رحمة تغشاه ، وإذا بوالد أبي عبيدة يضرب بسيفه هام المؤمنين المجاهدين ، فهوى أبو عبيدة بسيفه على رأس والده فأرداه قتيلاً ، قال جمعٌ من المفسرين: نزل قوله تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽﭾ ﭿ ﮀ ﮁﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﭼ المجادلة: ٢٢ في أبو عبيدة يوم بدر .

يا له من حدثٍ مهيب ، وموقف عظيم .

إنه الإيمان الصادق ، إنها عقيدة الولاء والبراء التي خاطب الله بها نوحاً لما أغرق قومه وولده ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭼ هود: ٤٦

وتمضي معركة بدر الكبرى ، ويدور الزمان دورته ، وخرجت قريش تثأر لقتلاها في بدر ، ولتشفي غليلها من مصابها في بدر ، فتحشد الجموع ، ويجتمع الفريقان في غزوة أحد المشهودة ، وهنا تظهر محبة أبي عبيدة لرسول الله @ .

فقد سجل أبو عبيدة في هذه الغزوة موقفاً عظيماً ، لم يسبقه إليه أحد .

فبعد ما كان ما كان من أحداث غزوة أحد ، ونزل الرماة من جبل الرماة ، وتبدّلت معالم المعركة ، وانهالت الضربات الساحقة على أصحاب رسول الله @ وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً ، وقويت شوكة المشركين ، وطمع المشركون في قتل رسول الله @ وكادت رماح الأعداء أن تنال منه @ فأصابوه بالحجارة بأبي هو وأمي @ ، وأُصِيبَتْ رُبَاعِيتُه، وشُـجَّ في رأسِهِ الشريف .

فأقبل أبو عبيدة يطير طيراناً إلى النبي @ ، ثم انكبّ عليه وجعل ظهره دون نحر رسول الله @ .

ونظر أبو عبيدة إلى رسول الله فبكى حينما رأى الدّم يسيل على وجه رسول الله @، وهو يَقُولُ: "كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالدَّمِ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﭽ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﭼ آل عمران: ١٢٨

وشُجَّ وجهُكَ، ثمَّ الجيْشُ في أُحُدٍ

يعودُ ما بينَ مقتولٍ ومُنْهَزِمِ

ورَغْمَ تلكَ الرَّزايا والخطوبِ وما

رأيتَ من لوعةٍ كُبْرَى ومن أَلم

ما كنتَ تحمِلُ إلا قلبَ مُحْتَسِبٍ

في عَزْمِ مُتَّقِدٍ في وجْهِ مُبْتَسِمِ

ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنة رسول الله @ فأرد أبو بكر > أن ينزعها ، فسأله أبو عبيدة أن يخلي بينه وبينها ، وخشي أبو عبيدة أن يؤلم رسول الله @ ، فأمسك إحدى الحلقتين بثنيته فانتزعها بقوة ، فوقع على ظهره وسقطت ثنيّتُه ، فأرد أبو بكر أن ينزع الحلقة الأخرى، فأقسم عليه أبو عبيدة أن يدعها، فأمسكها أبو عبيدة بثنيّته فاقتلعها وسقطت ثنيّته الأخرى فزادهم الله بالهتم جمالاً ، حتى قيل : لم يمرَّ في النّاس أحسن هتماً من أبي عبيدة .

رحمك الله يا أبا عبيدة ورضي الله عنك وأرضاك .

وهكذا عاش أبو عبيدة > مجاهداً داعياً محباً لرسول الله @ فمنذ بسط يمينه مبايعاً لرسول الله @ وهو لا يرى في نفسه وفي حياته كلّها سوى أمانة استودعها الله إياه ليبذلها في سبيل الله فلا يركض وراء حظ من حظوظ الدنيا .

وها هو وفدٌ من أَهْل نَجْرَان يقولون لرسول الله @: ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا أَمِينًا فَقَالَ: «لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ حَقَّ أَمِينٍ»، قَالَ فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ قَالَ فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ . متفق عليه .

وفي رواية : جاءَ إلى النَّبيِّ @ وَفْدٌ فقالوا: يا رسولَ الله! ابعَثْ مَعَنا أمينَكَ ندفَعْ إليه صدقاتِنَا، ويَقْضِي بينَنا في أموالِنا. فقالَ @ : "اِئْتوني العشيَّة أَبْعَثْ مَعَكُم القويَّ الأمينَ". يقولُ عمرُ: فما أحبَبتُ الإمارةَ إلّا يومئذٍ، فَرُحْتُ مُهَجِّرًا حتَّى صلَّيْتَ خلفَ رسولِ الله @ في أوَّلِ الصُّفوفِ، وأنا أرجُو أَنْ يدعُوني لَهُمْ، فلمّا سلَّمَ جعلَ يَرْمِي بطَرْفِهِ يمينًا وشمالًا، وجعلْتُ أتطاولُ لِيَرَانِي فتجاوَزَني، فودِدْتُ أَنَّ الأرضَ انْشَقَّتْ فدخلْتُ فيها، حتّى رأى أبا عبيدةَ بنَ الجرّاحِ، فقالَ: "تعالَ يا أبا عبيدةَ"، فبعثَهُ مَعَهُم. تاريخ دمشق (25/462).

رحمك الله يا أبا عبيدة فمع هذه الأوصاف الرائعة كان > مقبلاً على الآخرة ، زاهداً في الدنيا ، فها هو عمر > يقول يوماً : يا أبا عبيدةَ، اذهَبْ بِنا إلى منزلِكَ. قَالَ: وما تصنعُ عِنْدي؟ وعمرُ يريدُ أَنْ يعرفَ منزلَهُ، ومعيشتِهِ، فعرفَ أبو عبيدةَ أَنَّ المنظرَ لَنْ يَسُرَّ عمرَ، ولكنَّ عمرَ أصرَّ على موقفِهِ.

فلمَّا جاءَ إلى البيتِ فإذا بمنزلٍ قديمٍ، وبنيانٍ مهدَّمٍ، فدخلَ فلَمْ يجدْ فيهِ شيئًا إلّا سيفَ أبي عبيدةَ، فقالَ في عجبٍ واستغرابٍ: أينَ متاعُكَ؟ لا أَرى إلا لِبدْا أو صفحةً وشنًّا، وأنتَ أميرٌ! أعندكَ طعامٌ؟ فقامَ أبو عبيدةَ إلى جَوْنةٍ فأخذَ منها كسيراتٍ مِنْ خبزٍ يابسٍ؛ فانهارَ أميرُ المؤمنينَ بالبكاءِ لهذا المشهدِ ، وأبو عبيدة يقول : يا أميرَ المؤمنين، هذا يُبَلِّغُني المقيلَ. قَالَ عمرُ: غَيَّرَتْنا الدُّنْيا كلُّنا، إلَّا أنتَ يا أبا عبيدةَ! [تاريخ ابن عساكر25/481].

يا اللهُ! يا اللهُ! مِنْ أَيِّهِمَا نعجبُ؟ ماذا تغيَّرَ فيكَ يا عمرُ وقَدْ نَحُلَ جسمُكَ، واسوَدَّ جلدُكَ مِنْ أكلِ الخبزِ اليابسِ والزَّيْت، يا لَهَا مِنْ عظمةٍ!.

فلا تعجب من هذا الزهد في الدنيا ، والإقبال على الآخرة ، فها هو النبي @ يبعث سرية ترصد عيراً لقريش .

يقول جَابِرٌ >، بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ @ وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَتَلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً، قَالَ: فَقُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ، فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ، وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ (ورق الشجر) ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ. رواه مسلم .

هذا والله هو الطعام الخشن في اليوم كلّه تمرة .

ونحن اليوم في نعم الله، ولذائذ العيش ، والعجيب أن أبا عبيدة والصحب الكرام مع الجوع والمسغبة ، والجهاد والحياة الشاقّة هم من أسعد النّاس وأشرحهم صدرا ، ونحن اليوم مع رغد العيش وإقبال الدنيا يعيش أكثرنا ضنكاً وهمّاً وضيقاً .

لقد علمتُ وخيرُ العلمِ أنفعُهُ

أن السعيدَ الذي ينجو من النارِ"

كانَ أبو عبيدَةَ ممَّنْ جمعَ القرآنَ الكريمَ، وكانَ ممَّنْ روى الأحاديثَ عَنْ النَّبيِّ @ وعَطَّرَ الدُّنْيَا، بكلماتٍ له سائرةٍ، كانَ يسيرُ في العسكرِ، ويتنقَّلُ بينَ الجندِ، وهُوَ يهتفُ قائلًا : أيُّها الناسُ! ألا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابِهِ مدنِّسٍ لدينِهِ، ألا رُبَّ مكرمٍ لنفسِهِ وهُوَ لها مهينٌ ... الخ [ابن أبي شيبة في مصنفه:7/116، ابن ماجة:4027، وصحَّحه الألباني].

كان > تقيّاً عابداً ، يخشى الله تعالى حتى قال يوما : وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ كَبْشاً فَيَذْبَحُنِي أَهْلِي فَيَأْكُلُوْنَ لَحْمِي ويَحْسُوْنَ مَرَقِي. سير أعلام النبلاء (3/14) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله

الثانية

سئلت عائشة <: أَيُّ أَصْحَابِ رسول الله @ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ؟ قَالَتْ: «أَبُو بَكْرٍ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّهُمْ؟ قَالَتْ: «عُمَرُ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّهُمْ؟ قَالَتْ: «أَبُو عُبَيْدَةَ». رواه ابن ماجه وصححه الألباني .

وتوفي رسول الله @ وأبو عبيدة ثابتٌ على دينه ، وجهاده ، وأمانته . ففي عهد أبي بكر الصديق > ، كان أميراً على حمص ، وفي عمر > كان قائداً لجيش المسلمين بالشام .

وهكذا ظَلَّ هذا المجاهدُ العظيمُ يفتحُ البُلدانَ، وينشرُ الإيمانَ، حتّى ظَهرَ بالشّامِ في بلدةِ عَمْواسَ مرضٌ مُهْلِكٌ، وطاعونٌ فاتكٌ، يحصدُ النَّاس حَصْدًا، وإذا بِجُثَثِ المسلمينَ تتهاوى مِنْ هذا الطّاعونِ الفتّاك الَّذي ذهبَ ضحيَّتَهُ أعدادٌ هائلةٌ مِنْ كِبَارِ الصَّحابةِ -رضيَ اللهُ عنهم-.

وحيْنَما رأى أبو عبيدةَ أصحابَهُ يتهاوَوْنَ واحدًا واحدًا، ويفتكُ بِهِمْ الطّاعونُ، وهُوَ لا يزالُ سليمًا معافًى، دعا ربّه قَائلًا: اللَّهُمَّ! نصيبَكَ في آلِ أَبي عُبيدةَ! فخرجَتْ في كفِّهِ بُثْرَةٌ صغيرةٌ، فَفَزِعَ منها أصحابُهُ، وعرفُوا أنَّه بدايةُ الطَّاعون في جسدِ أَبي عُبيدةَ، فلمّا رأى خوفَهُمْ وقلقَهُمْ نظرَ إليهم مبتسمًا ثُمَّ قالَ: والله! ما أحبُّ أنَّ لي مكانَها حُمُر النَّعمِ!.

بدأَ المرضُ يشتدُّ، والكربُ يَعْظُمُ، وسكراتُ الموتِ تدنوا من روحِ أبي عبيدةَ، فيأتي إليهِ زُوَّارُهُ، فيستقبلُهُمْ بصدرٍ رحبٍ، وإيمانٍ وثيقٍ، والطّاعونُ يَلْتَهِمُ أحشاءَه، ودخلَ عليه وَفْدٌ من أصحابِهِ يزورونَهُ وهُوَ في الرَّمَقِ الأخيرِ فلَمْ يجعلْهُمْ يخرجُوا حتّى ضوَّعَ مجلسَهُمْ بأريجٍ مِنْ دُرَرِ كلامِهِ العذبِ فقال لَهُمْ: "إنِّي مُوْصِيْكُمْ بوصيَّةٍ، إِنْ قبلتمُوها لَنْ تزالوا بخيرٍ: أقيموا الصلاةَ، وآتُوا الزَّكاةَ، وصُومُوا شهرَ رمضانَ، وتصدَّقوا، وحُجُّوا، واعتمرُوا، وتواصَوْا وانصحُوا لأمرائِكُمْ ولا تغشُّوهُمْ، ولا تُلْهِكُم الدُّنْيا، فإِنَّ امرأً لَوْ عَمَّرَ ألفَ حولٍ ما كانَ لَه بُدٌّ مِنْ أَنْ يصيرَ إلى مصرعي هذا الذي ترونَ، إنَّ اللهَ كتبَ الموتَ على بَني آدمَ فهُمْ ميِّتُونَ، وأكْيَسُهُمْ أَطْوَعُهُم لربِّهِ، وأعملُهُمْ ليومِ معادِهِ، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله. يا معاذَ بنَ جبلٍ، صلِّ بالنّاسِ".

ثمَّ شخصَ أبو عبيدةَ ببصرِهِ للسَّماءِ وهُوَ يُتَمتِمُ: أشهدُ أَنْ لا إِلَه إلَّا الله، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله؛ ثمَّ فاضَتْ روحُهُ، ورحلَ إلى ربِّهِ.

وجَاءَ الخبرُ إلى عمرَ > فبكى لوفاةِ أبي عبيدةَ، وبكى الصحابةُ، وخيَّمَ على المدينةِ ليلٌ مِنْ الحزنِ، فأمسَتْ القُلوبُ لها أنينٌ، والصُّدورُ لها أزيزٌ.

ومات أمين هذه الأمة ، مات أبو عبيدة وبقي قبره في أرض الأردن منارة جهاد ، وداعية شهادة .

قومٌ محاسنُ جودِهم مبثوثةٌ ... يبلى الزمانُ وذكرها متجددُ

1. **رَحَى الْحَرْبِ، وَهِيَ حَوْمَتُهَا. معجم مقاييس اللغة (2/498)** [↑](#footnote-ref-1)